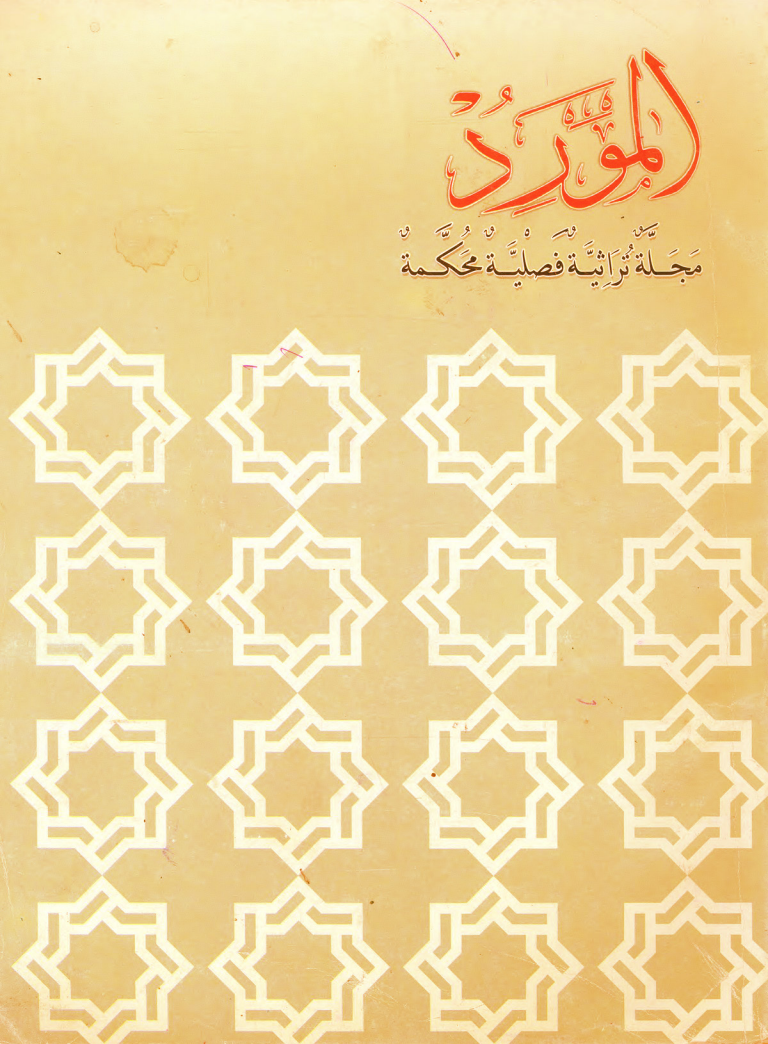
المورد
مجلة تراثية فصلية محكمة

قراءة ثانية لمقال صاحب الزنج الثائر الشاعر ...

بقلم الدكتور

نوري حمودي القيسي

تابعت حركة الزنج منذ فترة طويلة ، وعلى وجه التحديد منذ فترة الدراسة ، وقرات بعض ما كتب عنها ، موزعا بين كتب مخصصة وفصول من كتب ومقالات وابحاث ، وكنت اجد فيها من التشويق ما يدفع لقراءة الكثير عنها ، ومن الاندفاع ما يحمل على المتابعة . وكل هذه الكتب الحديثة تشير الى قائدها وتضفي عليه من الصفات ما يجعله في مصاف القادة . ومعظم الكتب القديمة تضفي عليه من النعوت ما يجعله في مصاف الفسدة المارقين الخبيثين . كنت اقرا هذا واقف بين ما يقال حائرا لا اعرف الدوافع التي تدفع اولئك على الهجوم ، وتحمل هوءلاء على الدفاع والتعظيم . ورجعت الى الشعر استنطقه، والمقطعات استبطنها ، لعلها تسعف ، ولعلها تنقذني من الحيرة التي يقع فيها المرء في مثل هذه الاحوال فوجدتها مليئة بما يؤيد وجهة نظر القدامى ، زاخرة بالخراب الذي عم البصرة بعد دخول اصحاب قائد الزنج ، فقد نهبت البيوت وقتل الناس في المساجد ، واستبيحت الاعراض وهتكت الحرم ، وسالت الدماء كالانهار ... ومن يرجع الى قصيدة ابن الرومي يجد فيها من الصور ما يؤلم ، ومن الفضائح ما تدمى له القلوب .. وعادت الحيرة تتملكني وعدت الى نفسي اسالها لانني اجد البون واسعا بين الكتابتين .. والتقويم لشخصية صاحب الزنج غير عادل . فمن السبب في هذا؟؟ واين اجد الحقيقة التاريخية ؟؟ وفي اي مرجع تلوح بوارق المعالجة العلمية ؟؟..

كنت اتحدث مع نفسي هذا الحديث .. ويلوح لي اكثر من وجه للمقارنة وانا اقرا مقال الدكتور عبد الجبار ناجي في مجلة المورد ، العدد (٣ ، ٤) ، ١٣٩٢/١٩٧٢ . وكنت اظن ان فيه شيئا جديدا . ولكنني وجدت ما كنت اعتقده واضحا بشكل لا يقبل الشك ، ومتميزا بصورة لا تدعو الى الحيرة .. وربما وجدت فيه الحقيقة التي اعتقدها اكثر تجسيدا والوقائع اقرب تناولا .. فقد قدم الدكتور لمقاله بمقدمة مسهبة اضاف فيها الى صاحب الزنج ما يضيفه اليه المحدثون من المؤرخين فهو يفتتح مقالته بعبارة « منذ اواخر الاربعينيات والعالم العربي يشهد تطورا متميزا طرا على دراسة موضوع ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد متمثلا بالتركيز على فحواها وابعادها الاجتماعية والاقتصادية ، وبالبحث في دلالاتها ومغازيها التاريخية على اعتبار ان هذه الثورة ومثيلاتها من الثورات والانتفاضات التي شهدها تاريخنا العربي تحمل مبادىء وشعارات اصلاحية واجتماعية واقتصادية ، وهي في ذاتها نماذج عاكسة لطبيعة المجتمع العربي الاسلامي آنذاك » (المورد ص ١١) . ثم يقول : « فمن المؤسف الا نجد له (التطور) صدى وتاثيرا في المجالات والجوانب الادبية والفنية مع شدة اتصال هذه الجوانب وارتباطها بالتطورات الثقافية عموما .. » (المورد ص ١١) . ثم يقول : «ليس المقصود من كتابة هذه الصفحات اعادة ما كتبه الباحثون في طبيعة ثورة الزنج وبرنامجها السياسي او مبادئها الاجتماعية ، ولا التعرض الى التوسعات العسكرية الناجحة التى خطط لها قائد الثورة» (المورد ص ١٢) . ثم يقول «والحديث عن شاعرية هذا الثائر يفرض سؤالا متصلا بمستواه الثقافي، ومدى معرفته . والمامه بالتيارات والاتجاهات المختلفة من دينية وثقافية وادبية السائدة (كذا) في عصره ، وذلك لما له من صلة وثيقة بشخصيته كثائر وبالنجاحات الواسعة التي امتازت بها ثورته (المورد ص ١٣) . وينقل الدكتور عبدالجبار عن الاستاذ احمد علبي رايه في هذا الموضوع فيقول : « وقد ادلى الاستاذ احمد علبي برايه في كتابه

ثورة الزنج ، ومقالته ثورة العبيد في البصرة ونصه « انه ليس بالرجل المفكر والحاكم المثقف بل هو داهية طموح ذو شخصية جذابة »(المورد ص١٣). ثم يستشهد بقول الدكتور الفاضل فيصل السامر ونصه « كان علي بن محمد رجلا مثقفا بمفهوم عصره ، وانه كان ذكيا قوى الارادة ، طموحا ذا نفس وثابة نازعة نحو الامال الكبار » ، ويعلق عليها الدكتور عبدالجبار .. « وهذه الصفات اراها فعلا متوفرة في قائد الزنج مع العلم بان هناك امرا مهما له علاقة بالموضوع ، وهو ان المعلومات التى خلفها المؤرخون عن ثورة الزنج لا تسمح بابداء راي قاطع عن مقدرة صاحب الزنج في الحكم وقابلياته السياسية وبرنامجه الاجتماعي والاقتصادي . غير انه من الراجح الاستنتاج بان قيادته كانت سليمة ، ثم جنكته سواء اكانت في تخطيطاته العسكرية واختياره القواد الاكفاء ، واتخاذه الحصون والقلاع نقاطا عسكرية » (المورد ص ١٣) .

وفي مجال الحديث عن شخصيته الادبية يقول الدكتور عبدالجبار ... « فالنماذج المدونة ادناه وبعضها اجزاء من قصائد هي اشعار تمتاز بالمتانة والقوة وهي ايضا تعبيرات صريحة عن ثورته وعقيدته الدينية واتجاهه السياسي» (المورد ص ١٤) .

وعدت الى نص الصفدي استوضحه واستعيده . ولم اجد نفسي بحاجة الى مشقة فهو واضح العبارة ، بيّن الفكرة واظن ان المحقق الفاضل طابق بينه وبين ما كان يجد له مثيلا عند الطبري والمسعودي وابن ابي الحديد (وكان يشير الى ذلك في الهوامش) وكان الصفدي يعيد الحقيقة التي تحمل الغصص والالم ، وتجرى بين سطورها روافد الدم والعبرات ، وتفوح من كلماتها روائح الغدر وحب القتل واستباحة المحرمات .

ويمكن ان تتمثل الجوانب الانسانية والاقتصادية والروحية التي سلكها صاحب الزنج والمتمثلة في نص الصفدي في ثلاثة اتجاهات يمكن استخلاصها من خلال النص الذي نشره الدكتور جبار ناجي وسوف احاول اثبات تلك النصوص بحرفيتها والتى نشرت في مجلة المورد .

١ ــ الجانب الانساني واعني به الاعمال المتعلقة بمعاملة الناس .. قال الصفدي :

ا ــ .. وقال « صاحب الزنج « اني كنت رأيت في المنام اني بلت بولة احرقت نصف الدنيا (ص ١٧)

ب ــ وقال علي صاحب الزنج : « اعتللت علة غليظة وانا صغير فجاء ابي يعودني فوجد امي قاعدة عند راسي فقالت له ، انه يموت ، فقال : اذا مات هذا من يخرب البصرة . قال : فما زال في قلبي ذلك الى ان خرجت بها (ص ١٨) .

ج ــ اغار (صاحب الزنج) بمن تابعه على فرضة (تعني محط السفن) من فرض البحرين **فنهبها واخذ اموالها وخربها** (ص ١٨) .

د ــ رجع (صاحب الزنج) الى البصرة واستولى على غلمان الناس من الزنوج يبذل لهم الاموال ويطمعهم في النهب (ص ١٩) .

هـ ــ ثم انه (صاحب الزنج) قود قوادا ورتب اصحابه ولم يزل ينهب ويقتل (ص ١٩).

و ــ وجمع له اهل البصرة ووقع القتال بينهم فهزمهم وقتل خلقا كثيرا فوقع له الرعب في القلوب ، ولم يزل في العبث والفساد الى ان استولى على الابلة ، واضرموا فيها النار فاحترقت باجمعها . وقتل خلقا كثيرا وغرق خلق كثير وحوى الاسلاب ... هذا وسراياه في القرى تعبث وتفسد فترك اهل البصرة المقام بها وهربوا الى سائر النواحي . ثم انه دخل البصرة سنة سبع وخمسين ومائتين وقت صلاة الجمعة فقتل واحرق الى يوم السبت ثم عاد يوم الاثنين فتفرق الجند ونادى اهل البصرة بامان فآمنهم ولما ظهر الناس قتلهم فلم يسلم الا الشاذ ، واحرق الجامع ومن كان فيه فعم الحريق الناس والدواب والمتاع وغير ذلك ، واستخرج الاموال من اربابها وقتل الفقراء (ص ١٩ــ٢٠) .

ز ــ وكانت سرايا (الخبيث) تصل الى واسط ودخلوها سنة اربع وستين ومائتين ، وقتلوا من بها ، واحرقوها ، واستولى على نواحيها ولم تزل عساكر الزنج تعبث وتفسد ، وتغير في اعمال الاهواز ، وعسكر مكرم وتستر وما صاقب هذه النواحي . يقتلون الرجال ، ويسبون النساء والاولاد وينهبون الاموال (ص ٢٠) .

٢ ــ الجانب الاقتصادى واعني به الامور المتعلقة بالاوضاع الاقتصادية :

ا ــ فحصل الخبيث على اموال وجواهر استاثروها واعطاها نساءه واولاده فانكر ذلك عليه جماعة منهم فقال نسائي ليس كنسائكم (ص ٢٠) .

ب ـ فلما كثرت حاشيته (صاحب الزنج) كف ايدى الزنج عن النخل والمزارع ، وجبى الخراج منهم ، والصدقة ، وصرفه الى اصحابه، فتغلثت قلوب الزنج ، فساءت احوالهم وهموا بالوثوب عليه (ص ٢١) .

٣ ـ الجانب الديني ..

ا ـ حدث في نفسه الكفر والخبث ودعوى الامامة وعلم الغيب والخروج على الائمة (المورد ص ١٨) .

ب ـ كانوا (اهل الاحساء) لا يدعون شيئا من فضلاته يسقط الى الارض ، ويأخذونه تبركا به (المورد ص ١٨) .

جـ ـ وجال في البادية واستغوى من لقيه من الاعراب ، واوهمهم انه يعلم منطق الطير (المورد ص ١٨)

د ـ ادعى ان قوله تعالى « انه استمع نفر من الجن » قد انزلت فيه وانا عبدالله الذي قام بدعوة (المورد ص ٢١).

هـ ـ وادعى انه الرجل الذي جاء من اقصى المدينة يسعى (المورد ص ٢١) .

و ـ وقال انزل في سورة من القرآن مجردة ليس فيها ذكر غيري وهي (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) (المورد ص ٢١) .

ز ـ وادعى انه تكلم في المهد صبيا . وانه صيح به : يا علي فقال : لبيك (المورد ص ٢١) .

إنني لا ازال حائرا بين المؤرخين القدامى والمحدثين ، لكنني اعود لاشكر الدكتور عبدالجبار لانه هيأ لنا اجتماع الظاهرتين في مقاله ونصه المحقق . ظاهرة المؤرخين المحدثين الذين يضعون صاحب الزنج في المكان الذي يؤهله للقيادة ويمنحه صفات المصلح الاجتماعي ، والثائر المخلص لاتباعه . (مقدمة الدكتور) . وطريقة القدامى من المؤرخين الذين يضعون صاحب الزنج في مقام آخر يخالف هذا المقام من حيث التاهيل والقيادة والاصلاح (نص الصفدي) .

ومع عودتي للشكر اعود مرة ثالثة لاجد نفسي في الحيرة الكبيرة التي تلف المتابع لاحداث التاريخ ليرى التاريخ كيف يكتب ؟؟ والاحداث كيف تؤرخ ؟؟ والرجال كيف يعاملون ؟؟ ولكن الأمانة العلمية وحدها هي التي تطوق اعناق المخلصين لكتابة التاريخ ليضعوا ايديهم على افئدتهم وهم يكتبون لان امانة الاجيال ثقيلة ، والف شكر